محمد الغزالي

الاستعمار
أحقاد وأطماع

21

طبعة مزيدة ومنقحة

العنوان: الاستعمار أحقاد وأطماع.
المؤلف: الشيخ/ محمد الغزالى .
إشراف عام: داليا محمد إبراهيم .
تاريخ النشر: الطبعة الرابعة يناير 2005م .
رقم الإيداع: 2003/8669
الترقيم الدولى: ISBN 977-14-2127-1

الإدارة العامة للنشر: 21 ش أحمد عرابى - المهندسين - الجيزة
ت: 3466434(02)-3472864 (02) فاكس:3462576 (02) ص.ب:21 إمبابة
البريد الالكترونى للإدارة العامة للنشر: publishing@nahdetmisr.com

المطابع:80 المنطقة الصناعية الرابعة - مدينة السادس من أكتوبر
ت: 8330287 (02) - 8330289 (02) - فاكس: 8330296 (02)
البريد الإلكترونى للمطابع: press@nahdetmisr.com

مركز التوزيع الرئيسى: 18 ش كامل صدقى - الفجالة - القاهرة - ص . ب : 96 الفجالة - القاهرة.
ت : 5909827 (02) - 5908895 (02) - فاكس: 5903395 (02)

مركز خدمة العملاء: الرقم المجانى: 08002226222
البريد الإلكترونى لإدارة البيع: sales @nahdetmisr.com

مركز التوزيع بالإسكندرية:408 طريق الحرية (رشدى)
ت: 5230569 (03)
مركز التوزيع بالمنصورة:47 شارع عبد السلام عارف
ت: 2259675 (050)

موقع الشركة على الانترنت: www.nahdetmisr.com
موقع البيع عبر الانترنت: www.enahda.com

احصل على أى من إصدارات شركة نهضة مصر (كتاب / C D)
وتمتع بأفضل الخدمات عبر موقع البيع
www.enahda.com

جميع الحقوق محفوظة © لشركة نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع
لا يجوز طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين أى جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة إلكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابى صريح من الناشر.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة الطبعة الثانية

على الرغم من تغير الظروف التى اكتنفت الطبعة الأولى من هذا الكتاب . فإن ما به من حقائق علمية وتاريخية يجب ألا يغيب عن بال المسلم .

إن معرفتها ضياء يكشف له طريق الجهاد وثمرته ، وطبائع الناقمين على الإسلام وأمته الكبرى وما بد من هذه المعرفة على اختلاف الأمكنة والأزمنة ، وتبدل الملابسات والأحوال فإن المسلمين أوتوا ـ خلال هزائمهم الماضية ـ من طيبة بلغت حد الغفلة .

بل لقد لدغوا مرارا من جحر واحد .

وإذا كان المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين ـ كما علمنا رسول الله ﷺ ـ فإن من حق الإيمان علينا ألا نسأم من تبصرة المسلمين بمواطن الأفعى . وأن نحذرهم بشدة من تكرار الإصابة .

خصوصا إذا كان عدوهم قد بدل زيه وتعلم كيف يخفى شراكه وكيف يحتال لبلوغ اربه ، وقد يسبق إلى بعض الأذهان أن الاستعمار فى طريقه إلى التلاشى .

وأن الإنسانية فى طور من تاريخها النير لا يسمح له بالبقاء أكثر مما بقى . . .

وأن ذيوله المتخلفة فى أفريقيا وآسيا منتهية لا محالة . . .

ونحن ـ المحامين عن الإسلام ـ كنا نود لو صحت هذه الأمنية ، وظفرت أرجاء العالم بحظوظها من الحريات الكاملة وفى مقدمتها الحرية الدينية .

بيد أننا نعلن آسفين أن هذه الأمنية لا تعدو آفاق الخيال .

وأن أزمة الحرية فى العالم لا تزال خانقة ، وأن حرية اعتناق الإسلام بالقهر والاستطلال بعقائده وشرائعه حرية منكورة مطاردة فى أغلب القارات الخمس .

فكيف يستريح لهذا الوضع مؤمن ؟ أو كيف يهادن قوى الشر التى تسانده ؟

إن الأمة الإسلامية الكبيرة تضم أعدادا كثيفة من المستضعفين فى الأرض .

والعوائق دون تجمعها على دينها لا حصر لها .

وربما ظفرت شعوب منها بحريات سياسية لها قيمتها ، لكن ظفرها بحق الحياة وفق شعائرها وشرائعها بعيد بعيد .

وقد كان الاستعمار الصليبى الخصم العنيد اللدود للإسلام وكتابه ونبيه وأتباعه .

ثم ظهرت الشيوعية أخيرًا واستطاعت أن تكسر الصليبية فى وقعات شتى وأن تنازعها السيادة على أرجاء العالم ، وموقف الشيوعية من الدين كله معروف ! ! .

ونحن الذين والينا الله ورسله وثبتنا على معالم وحيه لن ننكمش قيد أنملة عن مواجهة العدو الجديد .

والقلوب التى أبغضنا بها كفر الغرب هى التى نبغض بها كفر الشرق .

وما ظلت تخفق بين أضلاعنا فهى حزب للرحمن وحرب على الشيطان « وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ » [1] .

وقد تستطيع تيارات الإلحاد الأحمر أو الأصفر أن تهب على بلاد الإسلام المنكوبة لكننا لن نأذن لها بقرار ولن نتوانى عن الاشتباك معها بكل ما لدينا من قوى حتى ترث الأجيال اللاحقة ما ورثناه عن الأجيال من تراث النبوة وتعاليم الحق .

ومن المحزن أن يكافح الإسلام فى جبهتين متراميتين ضد الشيوعية الزاحفة أو الصليبية الحقود .

وأيا ما كان الأمر فليس أمامنا إلا أن نحيا بإيماننا أو نموت دونه .

وسيرى القارىء أن هذا الكتاب قد تحدث عن أحد العدوين فقط ووصف مآسيه .

والأمل فى الله يتيح لنا فرصة قريبة للحدث عن الآخر [2] وهو حديث طويل ذو شجون [3] .

محمد الغزالى

---

(١) المائدة : ٥ .

(٢) صدر كتاب « الإسلام فى وجه الزحف الأحمر » وفاء بهذا الوعد ، ولله الحمد والمنة . . . ! !

(٣) يعتبر كتاب الإسلام والزحف الأحمر الشق المكمل لهذا الكتاب . وقد لقى الشيخ بسببه عنتا شديدا . . «المحقق» .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة الطبعة الأولى

اطلع بعض الصحاب على نبذ من هذا الكتاب ، ثم قالوا : إنك لا تزال عنيفا . . . ! ! ففزعت لهذا الاتهام ، وتحيرت فى بواعثه وشواهده ! .

إن العنف خليقة مرذولة ما أحب أبدا أن أتصف بها .

ثم إن العنف أول مظاهر العدوان ، ولست أضيق بشىء فى حياتى كما أضيق بالمعتدين وسيرتهم .

لوددت أن الأرض تصفر منهم ، وتخلو من أشباحهم ، حتى تهدأ الحياة ، ويستريح الأحياء . . .

لكن لماذا اتهم بالعنف ؟ أو أنسب إلى خلق أبغضه ؟

هل شدة السخط على الباطل ، ورفع العقيرة فى استنكاره يعدان عنفا ؟ ما أظن ذلك حقا !

إن المستقيم مع طبائع الأشياء أن تغضب إذا وجدت حقا ينهب أو حقيقة تغير .

والمستقيم مع طبائع الأشياء أن يشتد غضبك إذا وجدت الناهبين والمغيّرين يمضون فى طريق الحياة ، وكأنهم لم يصنعوا شيئاً يؤاخذون به ! !

فإذا بلغ الجور على الحقوق ، وبلغ التحريف للحقائق مرحلة أنكى وأحرج فماذا تصنع ؟

ماذا تصنع ؟ إذا استحر القتل فى المدافعين عن أوطانهم وعقائدهم واعتبروا مجرمين ؟ واعتبرت قضاياهم ليست أهلاً للنظر فيها ؟ وذلك فى الوقت الذى يتبجح فيه القتلة ، ويلبسون شارات العدالة والرقى ؟ ؟

ماذا تصنع إذا تواطأت عشرات الدول على ابقاء السجين يرسف فى قيوده ، والبرىء يتشحط فى دمه ، والأحرار المكافحين يتساقطون لفيفاً بعد لفيف ، واللاجئين المطرودين يهلكون فوجا بعد فوج ؟ ؟ .

ماذا تصنع إذا رأيت الخناصر قد انعقدت على محو رسالة كبيرة كالإسلام ، و إهانة أم شنى لأنها تعتنق الدين الحنيف ؟ والضن عليها بالحياة ما لم تنحرف عن شرائعه ، وتتنكر لتعاليمه !

فإذا بدا أنها مستمسكة به ، أو أن الأحوال فيها تؤذن ببقائه ، أو بعض الوفاء له ، شنت عليها الحروب حامية وباردة ! !

ماذا تصنع والحالة هذه ؟

أتبتسم ابتسامة الرضا ، أو ابتسامة المداهنة ؟

إن اللطف ـ مع هذه المآسى ـ مرض ينبغى علاجه ! !

والعنف فى التعبير أقل شىء يقدمه كاتب فى فؤاده غيره على الحقائق التى يجب أن تعرف ، والحقوق التى يجب أن تصان . . !

ولا أدرى ، أهى طبيعتى ، أم طبيعة الإسلام فى نفسى ، تلك التى جعلتنى أهش مثلاً لتصريحات البطريرك المارونى « بطرس المعوشى » فى مأدبة الإفطار التى أقامها لعلماء المسلمين بلبنان فى رمضان سنة ١٢٧٦ هـ .

لقد روت الصحف بأنه دعا إلى توحيد الصفوف بين المسيحيين والمسلمين ، ونوه بتوثيق التعاون بين الفريقين ، وأعلن تمسكه بالميثاق الوطنى المعقود بين أهل لبنان سنة ١٩٤٣ م ، كما ندد بموقف رجال السياسة الذين يحاولون تفريق كلمة الشعب اللبنانى ، وسلخه من أسرة الدول العربية . . .

هششت لهذه التصريحات مع علمى بأن الميثاق الوطنى المشار إليه جعل المسلمين فى لبنان أقل من النصف ، نتيجة إحصاء زوره الفرنسيون لغرض ظاهر ! !

نعم ، ومع علمى بأن نسبة الموظفين المسلمين فى الأجهزة المدنية والعسكرية للدولة عشرة فى المائة ، أو يزيدون قليلا . . ! !

ومع هذه الغرائب المثيرة فقد رحبت بمبادىء التعاون المقترح ، ورجوت من وراءه سلاماً كريما

بعد أن ساءلت الغرب والرجال الذين يعملون معهم أو لهم ، لا يريدون هذا ، أو لا يكتمون به أ .

أى يرضى القتيل وليس يرضى القاتل ! ! .

يجب أن تجر الدول العربية كلها إلى جانب الاستعمار الغربى ، وأن تعمل فى حقله ، وأن تقاتل تحت لوائه .

وهذا الاستعمار هو طارد المسلمين من فلسطين وواهبها لليهود .

وهو طارد المسلمين من الجزائر وواهبها لفرنسا .

وهو كاسر جناح المسلمين فى لبنان والحبشة مع كثرتهم[1] .

وهو الذى يرهب اليوم الشعوب المتحررة ، ويراودها عن عقائدها وشرفها . . .

وهو الذى يبسط يده بالأذى حيناً ، وبالرشوة حيناً ، ليقيم حجاباً بين حاضر المسلمين وماضيهم ، فأما عاشوا مرتدين أتباعاً لغيرهم . . وأما . . فلا حق لهم فى الحياة ! .

أهذا وضع يقبله كريم ، أو يرتضيه إنسان ما ؟ !

لقد بنينا فى الماضى حضارة من أزكى الحضارات التى عرفتها الدنيا ، أو ذاك ما نزعمه على الأقل فيما لدينا ، وفيما صنع أسلافنا ! ! .

فمن العبث فتنتنا عن مواريثنا المقدسة بالقسر .

وقد حكى التاريخ قصة صراع طويل دام بيننا وبين غيرنا ، فهل من الحكمة استدامة هذا النزاع ، واستبقاء ثاراته ، تهيج الأحقاد ، وتقطع الأكباد ؟

إن السياسة التى رسمتها دول معروفة لاجتياح الإسلام ، وفض مجامعه ، واجتثاث جذوره من أرضه ، هذه السياسة لن تنتج إلا البلاء لأصحابها ، فإن الإسلام لن يموت ، وأهله الذين يبادون تارة ، ويطردون من مدنهم وقراهم تارة أخرى ، سوف ينسلون مَنْ يغضب لهم يوما ومَنْ لا يتهم بعنف إذا ملأ يديه بالقصاص الرهيب ! !

إن مستقبل العالم يكتنفه الشؤم من كل ناحية ، ما بقى الاستعمار ماضيا فى خطته الآثمة : يسترق العباد ، ويستغل البلاد .

وما بقى على الخصوص فى بلاد المسلمين ، يجتهد فى تمزيق أوصالهم ، وافساد ضمائرهم وأفكارهم ، وتقديم حقوقهم هدايا للطامعين والجائعين ! ! .

---

(١) وكاسر المسلمين فى اقطار شتى . . الصومال وإتريا والبوسنة والهرسك وتركستان . . ومؤخرا تركيا فى حربها ضد العلمانية . . وغيرهم . . « المحقق » .

والكاتب المسلم لا يلام إذا غدا أو راح وهو يهدر ويزمجر مشيرا بيديه كلتيهما إلى وجوه البغاة يستنزل عليها اللعنة ، ومستفزاً قومه كى يرجعوها وعليها صفرة الخزى ، إن لم يرجعوها وعليها لطمات القمع والتأديب . . .

أهذا هو العنف الذى يلاحظ علىَّ ؟ ليكن ، فما يستحب العنف فى موطن استحبابه فى هذه المواطن !

وقديماً قال سعد بن ناشب :

تفندنى فيما ترى من شراستى
وشدة نفسى أم عمرو . وما تدرى
فقلت لها : إن الكريم وإن حلا
ليلفى على حال أمر من الصبر
وفى اللين ضعف والصلابة شدة
ومن لم يهب يحمل على مركب وعر
وما بى على مَنْ لان لى من فظاظة
ولكننى فظ أبى على القسر
أقيم صفا ذا الميل حتى أرده
وأخطمه حتى يعود إلى القدر

والفارق بين هذا الشاعر الفارس وبيننا أنه كان يجدع بسيفه أنوف المعتدين ، ثم يودعهم بنبرات عالية جافية قائلا : شاهت الوجوه . . .

أما الكاتب المسلم فهو يدع الحزن يأكل قلبه لمنظر أطفال اللاجئين فى العراء ، ثم . . .

« يبكى . ومن شر السلاح الأدمع ! ! » ، كما قال أبو الطيب : والعبرات سلاح مفلول . لا يرد طاغية بل لعله يسر الطغاة . . .

والكاتب المسلم يقف على أطلال القرى المخربة فى الجزائر بعد ما عطلت مغانيها ، ويبس دم القتلى فى أرجائها ، وشرد الناجون من أبنائها ، بين مفجوع يطلب الثأر ، أو مهزوم يطلب المأوى ، يقف الكاتب المسلم على هذه الأنقاض ، ثم يرسل بصره من

وراء المسافات الشاسعة ، ليسائل الساكنين فى ناطحات السحاب : أهذا ما أوعزتم به ، ورضيتم عنه ؟ ألهذا صنعتم السلاح ، وأعطيتموه فرنسا ! .

ثم يسائل الفرنسيين أنفسهم : أهذه الهمجية المجنونة هى وصايا حضارتكم فى معاملتنا نحن المسلمين ؟ ! .

إنكم إذا بطشتم جبارين ، إنكم تأكلون لحومنا فى ضراوة مفزعة .

إذا لم يكن لكم رب تتقونه ، أما تخشون أن تدور عليكم الليالى فتدفعوا ثمن هذا كله ؟

لكن ما جدوى التساؤل المفجوع هنا ، والبكاء الضارع هناك ؟

إن محو هذه المآسى منوط بأعناقنا نحن .

أما زبانية الاستعمار فلا يسوغ لهم ملام ، ولا يوجه لهم كلام ، ما موضع العتاب بين قطيع أعزل ، وقافلة ذئاب ؟ .

* * *

إن ألوف الأغرار ينظرون فى بلاهة إلى الحروب الاستعمارية فى الشرق الإسلامى ! يحسبونها حروبا مجردة من النزعات الدينية المنحرفة .

ونحن الذين لمسنا ألوف الأدلة على ما فى سياسة الغرب تجاهنا من أحقاد صليبية ، لا تحتاج إلى مزيد من الأدلة يؤكد لدينا هذا اليقين .

ولكننا فى هذا الكتاب نكشف النقاب عن جوانب يختلط فيها الضغن الأعمى بالجشع البالغ ، ونعرض هذه الصور أمام الأعين المتألمة ، ليعرف الواهمون أنهم أمام حرب تريد طحن أرواحهم وأجسامهم ، تريد محق دنياهم وأخراهم ، تريد استلال الإيمان من قلوبهم ، واستلال العافية من أبدانهم ، تريد فرض جاهلية حديثة فى أغلب أقطار العالم . بعد أن يذوب الإسلام فى القارتين القديمتين ، وبعد أن تتحول شعوبه إلى عبيد لعبيد الآلات . . .

إن ثورات الضغينة الخسيسة على الإسلام ومعتنقيه تكمن وراء حقل السياسات الأجنبية كلها .

ومحاولات الساسة فى أوروبا وأمريكا علاج قضايانا المختلفة لا تنفصل أبداً عن محاولاتهم توهين أمرنا ، وخذلان جانبنا ، تمشيًا مع مشاعر الحقد الدينى علينا . . .

ولطالما تجاهلنا هذه المعانى ، ورغبنا فى نقل المعركة إلى ميدان آخر ، ميدان لا تشم فيه رائحة التعصب لدين ، أو التعصب ضد دين .

بين أن ساسة الغرب وزبانية الاستعمار أبوا إلا إكراهنا على مواجهة هذه الحقيقة المرة ، فنحن نقف أمامها بعد أن حبسنا هؤلاء فى نطاق من الصور الداكنة ، يحيط بنا عن يمين وشمال ، توحى كلها بأننا أمام غارات صليبية جديدة لم تغير هدفها القديم و إن تغيرت أحيانا الوسائل . . .

وحاشا للنصرانية التى جاء بها عيسى ابن مريم أن تكون سر هذا الحيف ، إن الصليبية المعتدية ليس إلا وثنية أخفت طبيعتها فى غلاف سماوى ، غير أن هذا الإخفاء ما لبث أن تلاشى ، ودل السلوك الشائن على أن المستعمرين ليس لهم دين إلا دين السطو والفتنة .

وعيسى ، وسائر الأنبياء أبرياء من هذا الظلم المبين . . .

ولما كان المعتدون علينا يسوغون مظالمهم بأنها رد على حركة الفتح الإسلامى الأول ، وأنهم يمنعون قيام تجمع عربى إسلامى لأن هذا التجمع خطر ، ومن ثم يجب سحقه قبل أن ينشأ ، لذلك عرضنا مرة أخرى لعنصر القوة فى ديننا وطبيعة السلام فى إسلامنا .

ومع أنه سبق لنا بسط القول فى هذا الموضوع فلن نسأم من تكرار الخوض فيه حتى نكشف شبهات المرجفين ونفضح طوايا الأفاكين[1] . . .

إن القتلة لا يستكثر عليهم الكذب ، واللصوص لا يستبعد منهم الافتراء والتزوير ، والمستعمرين لا يستغرب منهم أن يجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق . . .

وإلا فكيف يعتبر بقاء الفرنسيين فى الجزائر شيئا طبيعيا لا تسئل عنه ، فإذا جاء جيش من أهل الأرض أو أهل السماء وأجلاهم عنها بالسيف - بداهة - عد ذلك تهجما كريها وفتحا ظالما [2] .

---

(١) لقد رد الشيخ الغزالى على إفك المستشرقين وسماسرة الاستعمار والهجمات المفترسة ضد الإسلام فى كتابه القيم « دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين » . « المحقق » .

(٢) لقد ترك الفرنسيون الجزائر مستعمرة فرنسية ثقافيا واجتماعيا وظهرت موجات من الأفكار المعادية للإسلام شكلاً وموضوعا . . إلافى عهد الشاذلى بن جديد حينما حاول جاهدا إعادة روح الإسلام واستقدم الشيخ الغزالى ، ليؤسس الجامعة الإسلامية هناك وليعيد الشيخ للجزائر وجهته الإسلامية ولغته العربية ، ومازال الغرب يتربص به ويقف حائلا دون استمرار الإسلام فيه ولمزيد من التفصيل عن علاقة الشيخ الغزالى بالجزائر . . انظر الحق المر جـ ٥ ص ٢٠٦ : ١١٠ طبعة دار نهضة مصر ١٩٩٦ القاهرة . . « المحقق » .

وانطلق الكذبة فى كل فج يعيبون السيف ، وينكرون امتشاقه !

بأى وجه يكون فتح الرومان لمصر عملاً مشروعاً ، وحرب العرب للرومان عملاً منكوراً ؟ !

إن تعاون أوروبا وأمريكا على استغلالنا واستذلالنا ليس إلا عوداً على بدء ، و إلا استئناساً للضيم القديم .

وكل قوة تفل شوكتهم فهى مقدورة مشكورة .

فكيف إذا كانت قوة يمليها العدل المطلق ، وتسرى فيها النزاهة الرائعة ، لأنها قوة فى يد نبى وصديقين وشهداء وصالحين ؟

لقد أثبتنا هنا فصولاً أخرى عن الإسلام والسلام ، بعد ما سردنا أحداثاً مخزية عن أفاعيل الاستعمار ، ليعرف المذهولون أنى عدل مضاعف كان لدينا ، وأى حيف مضاعف وقع علينا ! .

وأخيراً عرضنا لحركة الارتداد الخلقى ، والثقافى والتشريعى ، التى أحدثها الغزو الأجنبى فى بلادنا ، وأدارها وفق سياسة مرسومة رتيبة . . .

وهى حركة تزعج كل مؤمن ، ومن حقنا أن نقلق على مستقبل الإسلام منها .

إن الاستعمار دائب على تخريج أجيال ملحدة ، وهو يغذى فى إلحاح كل عمل يطرد الإيمان من القلوب ، ويشيع المنكر والفحشاء فى المجتمع .

وغايته التى ظهرت من طول سعيه لها ـ مع شدة خبثه وتكتمه ـ هى القضاء على الإسلام فى أوطانه ، وردم المنابع التى تمد الناشئة بتعاليمه ، وتبصرهم بحدوده وحقوقه ! . . .

ومن القصور أن تحسب أهداف الاستعمار الصليبى منتهية عند بث الرذائل فى المجتمع ، ونشر التفكك فى شتى نواحيه ، كلا ، إن الأمر لديه أكبر من ذلك .

وسترى فى هذا الكتاب أن المقصود هدم رسالة محمد من الألف إلى الياء ، وخلق نفر من الكُتّاب يؤلفون الرسائل ويدبجون المقالات ، وملء نفوسهم : أن محمدًا هذا

رجل دعى ، وأن قرآنه كتاب بشرى ، وأن التعلق به رجعية بالية ، وأن الخروج عليه طريق التقدم والارتقاء .

وذلك كله طبعاً لحساب الصليبية الغازية ، وتحقيق لمآربها التى لم تتغير على ترامى الأعصار . . .

* * *

إن للاستعمار أحقاد دينية ، وأطماع دنيوية ، وكل أهاب يغطى هذه السوءات فهو جملة أصباغ ودهون ، يجيدها ممثلو الروايات فى أدوارهم الضاحكة ، أو الباكية .

والدنيا لم تعرف أناسًا أوتوا المقدرة على إخفاء أحد النيات وراء المعسول من الكلمات كما عرفت ذلك فى تجار الاستعمار الحديث . . .

إننا من سبعين سنة ـ نحارب تيارات الإلحاد والتكفير التى تنحدر إلينا من عواصم الغرب ، ونكفكف فى جهد مضن موجات الفسق والمعصية التى تلطم مجتمعنا بإصرار ، والتى تتحسس السدود الضعيفة لتنساب منها كى تفسد علينا ديننا وتاريخنا .

والله يعلم فداحة مصابنا من هذه الناحية .

إن بلاد الإسلام فى أسوأ ما مر بها من ظروف ـ لم تكن طيعة لعوامل الشك والتحلل ، ولا لينة أمام فنون الإغراء الجنسى ، ولا مسعورة فى التعلق بتراب الدنيا ، ولا مصروفة عن مرضاة الله ، كما زين لها ذلك كله الاستعمار الحديث . . . (ولا نشك أن مصابها من هذه الناحية هو الذى زين لبعض بنيها أن ينخدع بالإلحاد الأحمر وأن يعتنق كثيراً أو قليلاً من مبادئه السفلى . . .) ونحن المسلمين لن نتحول قيد أنملة عن قواعدنا الدينية ، ولن نستسيغ بتة أى لون من ألوان الالحاد مهما كانت صبغته[1] . . .

---

(١) لقد تلون الالحاد باسم العلمانية واستمر الشيخ يحاربه فى كل هذه المسميات حتى مات رحمه الله على ذلك .

ألا قبح الله الإلحاد كله ، ووقى المسلمين غوائله أيا كان مصدره ، ورد العافية إلى أمتنا فى معاشها ومعادها ، حتى تعود إلى ميدان الحياة مرة أخرى رحمة للعالمين ، وبركة للناس أجمعين .

لكن تلك الأمنية الحلوة لن تتحقق ما بقى الاستعمار ينشب مخالبه فى مقاتلنا ، وينقض غزلنا كلما قويناه ، ويعمّى علينا الصراط كلما سلكناه .

وكتابنا هذا يتضمن جملة ضخمة من الأدلة والاحصاءات والأسانيد الوثيقة لم أستطع تنسيقها على نحو فنى يرضى أذواقاً معينة ، لأن الحياة التى أحياها والطريقة التى أكافح بها لا يعيناني على هذا .

بيد أن ما جمعته فيه من حقائق وما أثرته من تعليقات ، يبلغ به ما أريد !

والذى أريده ، أن ترسخ فى الأذهان هذه الكلمة : إن الاستعمار أحقاد وأطماع ! وأن مستقبلنا لن يضىء إلا إذا نجا من حقد الحاقدين ، وطمع الطامعين .

محمد الغزالى

* * *

١ـ كيف يفتكون بنا ...

رسالات السماء والأجناس التى حملتها:

« الناس معادن ».

تكشف المعاملات عن سرائرهم وهم آحاد ، وتكشف السياسات عن طبائعهم وهم جماعات .

ومعادن الأمم تتكون من جملة السلوك العام لأفرادها ، مع ما ينضم إلى ذلك من خصائص الجنس ، ومستويات الثقافة ، وأنصبة المنفعة التى تحرص كل أمة على تحصيلها لنفسها ...

ومعدن الأمة له أثر كبير « فيما تحمل » من رسالات ، فإن الأمة التى لها خصائص كريمة تصل برسالتها إلى مدى بعيد ، والأمة التافهة تكبو بالرسالة التى تحملها ، وتقف بها دون الغاية المنشودة ...!

إذا التقت طبيعة أمة ما مع طبيعة الرسالة التى تحملها كان هذا الالتقاء قوة كبيرة للأمة ورسالتها معًا . وتعزز ثمرات الخير الناشئة عنه إذا كانت هذه الرسالة قائمة على الإيمان والحق ، محكمة السير فيما تقدم للعالم من بر ورحمة ! ولكن هل هذا الالتقاء ميسور دائما ؟

إن الأمم قد تكون لها طبائع شرسة إلى جانب نواحيها الأخرى الطيبة ، فإذا اعتنقت دينا كله رفق وبناء ، فهل تهب له نواحيها الطيبة ، وتطوى له طباعها الرديئة ، وتؤدى الأمانة كاملة فى عرضه وفرضه ؟ ؟

إن التاريخ يسجل تفاوتا كبيرا لمسير الرسالات الكبرى فى الأرض ، وهو تفاوت يجب أن نلحظه حين ننصف الأديان من اتباعها ، وحين نذكر ما لها وما عليها ...

لقد اعتنق العرب الإسلام ، فاستطاع هذا الدين فى فجر دعوته أن يذيب العصبيات المفرقة التى أكلت هذا الجنس ، وبددت قواه ، واستطاع أن يحول تهوره إلى شجاعة حكيمة ، واعتداده بنفسه إلى اعتداد بالحق ورسالته فحسب ..!

مِنْ ثم انتفع الإسلام بالعرب ، بعد أن هذب معدنهم ، وصقل رونقه ، فإذا هو يطوف بالمعمور من أرض الله فى سبعين سنة ، ويؤسس حضارات عليها طابع الخلود ..!

ثم تحركت العصبيات المكبوتة ، وتفلتت من قيود الدين ، ورجعت إلى العرب طبائعهم فى الجاهلية ، مع حرصهم فى الوقت نفسه على استبقاء الأهاب الإسلامى ، وظواهر التقى والإيمان .

وتفرقوا شيعا فكل قبيلة فيها أمير المؤمنين ومنبر !

فكانت عودة الحياة إلى هذه العصبيات المفرقة سببا فى انهدام الدولة الإسلامية الكبرى ، بل كانت سببا فى انسلاخ أقطار وأقوام عن الإسلام جملة .

* * *

واعتنق الترك الإسلام ، وكانوا أول عهدهم أصحاب بداوة أنقذت الإسلام من عصور الترف والانحلال التى وصلت إليها أمته ودولته .

والجنس التركى كغيره من الأجناس له محامده ومثالبه ، أنه شجاع تتغلغل عواطف الإيمان فيه إلى غور بعيد ، بيد أن حماسه مشوب بحمق ، وشجاعته تصحبها عنجهية ، وهذه الخواص التى عرف بها الترك أفادت الإسلام وأضرته .

أفادته فى مقاتلة أوروبا بحمية أربت على حمية الصليبيين ، و إصرار كسر شوكتهم عدة قرون وصليبيو أوروبا - كما رأيت وسترى - وحوش ، والقسوة التى لقيهم بها الترك كانت تأديبًا قامعًا لهمجيتهم .

إلا أن سياسة الأتراك هذه وجلافتهم العكسرية أضرتا بالإسلام فى داخل بلاده وخارجها : ففى الداخل ذلت الأجناس المحكومة لعنجهية الجنس الحاكم وسيرته الخالية من الحكمة والرشاد ، وفى الخارج تحولت الحرب الدينية إلى قتال ثارات وفتك ، وغارات متبادلة .

والإسلام برىء من هذه الحروب - وإن حمل الصليبيون وحدهم تبعاتها فى القديم والحديث - فإن حروب الإسلام يجب أن تلزم الدائرة المضروبة حولها فى كتاب الله وسُنَّة رسوله . ومهما أسف الأعداء ، وغلت مراجلهم بالحقد ، فإن أسلوب الدعوة الإسلامية تأخير القتال بحيث لا يجىء إلا بعد استنفاد الوسائل السلمية فى تأمين الحق ، ورد المظالم ، وتأديب الطغاة . . .

على أن تعاليم الإسلام ـ التى ضمن الله لها السلامة ، وكتب لها البقاء ـ ظلت أولاً وآخراً ترشد أتباع الإسلام إلى الحق إذا انحرفوا عنه ، وترد شذوذ بعضهم إذا حمله الشطط على فعلة لا تليق .

وذاك على عكس الأحوال التى سادت الصليبية والأجناس التى اعتنقتها ، أو التى تناثرت منها الآن فى أوروبا وأمريكا .

إن الناظر إلى أقطار الغرب قد تخدعه مظاهر المدنية التى بلغتها ، وقد يظن أن نظافة القوم فى وجوههم وملابسهم فيض من نظافة ضمائرهم وأرواحهم ، وهذا خطأ شديد ، ووهم بعيد فالقوم من أقذر أهل الأرض ضمائر وأرواحًا ، وتقدمهم البادى فى مضمار العلوم والكشوف الكونية لم يخلعهم عن طبائعهم القبلية الأولى يوم كانت تسكن أوروبا قبائل الغال والقوط والوندال والسكسون وغيرهم ، بل لعل تطور وسائل الإبادة والفتك زاد ضراوتهم ، ووسع المجال أمامهم لإرواء ظمئهم إلى العدوان والسطو . . . وأفعالهم فى المستعمرات التى سقطت بين براثنهم تدل دلالة حاسمة على صدق الحكم .

* * *

إن الأوروبيين يملكون الآن وسائل شتى لإخفاء فضائحهم ، وسيطرتهم على العالم تمكنهم من ارتكاب أبشع الجرائم فيه ، ثم تفرض الرقابة على الأنباء ، فلا يدرى الناس شيئاً عن الركن البائس من أركان الدنيا ، الذى بطش الأوروبيون به ، وأحلوا مقتهم بأهله[1] !

هل درى الناس أن جزيرة « مدغشقر » ثارت بعد الحرب العالمية الثانية تطلب حريتها ، فكان جزاء الثائرين أن تحركت القوات الفرنسية ، وقتلت من الأهلين ثمانين ألف نسمة ! يا لله ثمانين ألف نفس فى ضربة واحدة !

لقد داخ الثوار إثر هذه المجزرة ، وساد الجزيرة الصريعة صمت مطبق ، وقضى على حركة التحرر فيها قضاء لا يعرف مداه ، وركنت بقية الأحياء إلى الخنوع وهم فى فزع لمقتل الآباء والأبناء ، والأمهات والبنات بهذه الصورة المسرفة ! ! .

أما الفرنسيون فقد استأنفوا حمل مشعل الحضارة مع غيرهم من مؤسسى هيئة الأمم المتحدة . . ! !

---

(١) هذا . . وهناك فى الهند والبوسنة والهرسك ودويلات الإسلام المفرج عنها من روسيا وإرتريا وغيرهم مذابح فظيعة تشل الأقلام عن تسجيلها . . . « المحقق » .

وماذا حدث فى « كينيا » ؟

أن قبائل « ماو ماو » ثارت هى الأخرى تطلب حريتها من الإنجليز المحتلين ، واستطاعت هذه القبائل أن تكون جيشا على شىء من النظام والدربة ، له قائد برتبة « جنرال » ، ودارت رحى القتال بين البيض والسود ، وبين قبائل الإنجليز السكسون ، وقبائل الزنوج الإفريقيين ، وكانت حربًا لا تكافؤ فيها ولا شرف .

كان قادة « الماو ماو » يشنقون إذا سقطوا فى الأسر ، وضرب المستعمرون الأقوياء نطاقاً حول وسط أفريقيا . ثم شرعوا فى صمت يبيدون أهل البلاد ، ويقتلونهم بالعشرات والمئات ، حتى تم لهم الإجهاز على الثورة والثائرين .

* * *

قال الأستاذ محمد شاهين حمزة : « لقد أعلن ناطق عسكرى منذ أيام أنه لم يبق من هؤلاء سوى ٢٥٠ أو ٣٠٠ على الأكثر . . » ، إذن لقد أبيدت عشرات الألوف من هؤلاء المطالبين بحقوق الإنسان ، ولعل كثيرين لا يعلمون أنه ـ حين كانت هذه الجماعات تباد بمختلف الوسائل ـ أذاع الإنجليز فجأة أن وحوشا مفترسة تأكل البشر قد ظهرت بكثرة ، وانتشرت فى مواطن أولئك المجاهدين ، وأنها تفتك بهم فتكاً ذريعاً ، وأن حملات عسكرية وجهت لإبادة هذه الوحوش ، ونجحت فى إبادتها ، وأغلب الظن أنه لم تكن ثمة وحوش ، لكنهم أرادوا تغطية جرائمهم البشعة أمام العالم ، فاختلقوا هذه المزاعم ليلصقوا بالوحوش البريئة تهمة إبادة البشر ، على حد المثل « رمتنى بدائها وانسلت » . .

« لقد كانوا وحدهم الوحوش التى أكلت البشر » .

إن فى دماء الأوروبيين وحشية بدأ الستار ينكشف عنها ، وظاهر من سياسة دولهم أن القساوة الموغلة ديدنهم فى حروبهم التى تشتعل بينهم ، أو التى يشعلونها ضد غيرهم ، وهنا نسأل :

أليس الأوروبيون نصارى ، يؤمنون بعيسى بن مريم الإنسان الرفيق الرقيق الوديع ، النبى الذى قال :

«وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا » (١) .

---

(١) مريم : ٣٣ .

ألم تؤثر هذه الرسالة شيئاً فى اتباعها ؟

ألم تكفكف قليلاً أو كثيراً من سوء طباعهم ، وشراسة أخلاقهم ؟

* * *

صليبية الغرب ليست ديانة عيسى بن مريم:

والجواب أن الصليبية التى تهيمن على الأوربيين والأمريكيين شيء آخر غير النصرانية التى لها كتاب منزل ، ومنهج سماوى مقدس ، أنها شيء آخر يغاير تعاليم عيسى أتم المغايرة ، و إن كان جمهور القساوسة والرهبان يمارى فى هذه الحقيقة ، لأنه ينسج صلته بعيسى بن مريم على نحو يوائم الصليبية المحدثة الجامحة ، ثم ينسب هذا الدين المحرف إلى عيسى نفسه .

وعيسى برىء من هذا الشرود ، إن الله يقول فى رسالة عيسى :

« وآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى ونُورٌ ومُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى ومَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ» (١) .

وتلك كلها معان فقدت ، أو ضاع منبعها فى الصليبية التى تعرف الآن ، والتى يزعم أنها هى النصرانية الأولى .

* * *

ولهذه الصليبية الغالبة خواص لابد من كشفها .

منها ، أنها انسجمت مع طبائع الغربيين الذين اعتنقوها ، وأرخت العنان لما يكمن فيها من قسوة .

ومنها ، أنها نقضت الإحساس بمعنى الجريمة وعقباها السيئة . ذلك أن نظرية الفداء ، وما تضمنته من أن عيسى قتل كفارة لخطايا بنى آدم ، جعلت الألوف المؤلفة من مصدقيها يستهينون بالآثام المحظورة ، ويقدمون عليها وهم آملون أن تحمل عنهم ! ! وهذه العقيدة كانت سبب مصائب كبيرة حلت بالأمم المهزومة ، ولعل شوقى كان يغمز أساسها ببيته اللاذع :

يا حامل الآلام عن هذا الورى كثرت عليك باسمك الآلام ! !

---

(١) المائدة : ٤٦ .

ثم إن هذه الصليبية كانت تعانى ما يسميه علماء النفس « عقدة الضعة » ، فهى تعرف مجافاتها للعقل ، وبعدها الساحق عن منطقه السليم . ومِنْ ثم فهى تستعيض عن الهدوء فى عرض نفسها ، والجدال بالتى هى أحسن ، تستعيض عن ذلك بفرض ظلمها على المذاهب والأديان الأخرى . كان عاطفة الحنق على المخالفين سوف تضفى عليها حقا فاتها من ضعف الدليل ، وانهيار الحجة .

وهذا يفسر سياسة البطش الشنيع التى اتبعتها الصليبية ضد غيرها ، بل التى اتبعتها ضد الإسلام خاصة . . ! ! !

وقد التقت الطبيعتان . طبيعة الغربيين الهمجية ، وطبيعة الصليبية هذه ، التقتا فى الغزو الاستعمارى الأخير للأقطار الإسلامية . .

ونحن نختار أحداث الجزائر مثلا شاهدا يصدق ما قلناه آنفا .

كتب الأديبان الفرنسيان « كوليت وفرانسيس جانسون » :

« لعل العبث بالدين الإسلامى كان هو المجال المفضل لدى القائد « روفيجو » فقد وقف هذا القائد الفاجر ، ونادى فى قومه : إنه يلزمه أجمل مسجد فى المدينة ليجعل منه معبدا لإله المسيحيين . وطلب إلى أعوانه إعداد ذلك فى أقصر وقت ممكن .

ثم أشار إلى جامع القشاوة لأنه كما قال - أجمل مساجد الجزائر طرا - وهو فى وسط المدينة ، وفى قلب الحى الأوروبى ، وبالفعل تحدد ظهر يوم ١٨ من ديسمبر سنة ١٨٣٢ لإنجاز هذا العمل ، وتحقيق تلك الرغبة .

ففى الميعاد المحدد تقدمت إحدى بطاريات الجيش ، وأخذت أهبتها للعمل فى ميدان السودان . وخرجت من بينها فرقة من سلاح المهندسين ، فهاجمت أبواب المسجد بالبلط والفئوس ، و إذا داخل المسجد (٤٠٠٠) أربعة آلاف مسلم ، اعتصموا جميعا خلف المتاريس ، فاندفعت نحوهم القوة العسكرية ، ودحرتهم بالسناكى ، فخروا بين صرعى وجرحى تحت أرجل الجنود ، واستمرت هذه العملية طوال الليل !

حتى إذا كان الصباح ، كانت القرارات قد صدرت ، وصار المسجد الجامع (كاتدرائية الجزائر) .

وما أن انتهى الجنود من هذا العمل ، حتى استداروا على أعقابهم صوب مسجد القصبة ، الغنى بذكريات الإسلام ، وأيامه المجيدة ، فدخله القواد والضباط والجنود ، وأقاموا فيه شعائرهم الدينية ، حتى إذا انتهى القداس ، شرع القساوسة فى تمجيد « إله الجيوش » ، وترتيل « نشيد الغفران ») .

ولعمر الحق إذا ساغ للجنود الجهلة ، ولضباطهم العابثين ، أن يأتوا مثل هذه الأفعال النكراء ، فكيف يسوغ للقس « سوشيه » ، وهو الوكيل العام لأسقف الجزائر ، أن ينضم إليهم ، ويتزعم طابورهم ؟ لقد وضع هذا القس سنة ١٨٣٩ كتابا أسماه « رسائل مفيدة ومشوقة عن الجزائر » ، وجه فيه الكلام إلى عاهل فرنسا فقال :

إن مسيو « فاليه » رجل عميق التفكير ! ذو ضمير حى ! لا تنقصه الحيلة ! إنه يحكم الجزائر كأكثر الملوك إطلاقاً فى الحكم ! إنه الرجل الذى ليس لهذه المستعمرة غنى عنه ! إنه يرغب أن يستتب الدين المسيحى وأن يحترمه الجميع ! إنه يريد أن يضاعف من عدد الصلبان والكنائس ! فى الجزائر ! إن مولاى يستطيع أن يفعل ما يشاء مع رجل مثل المسيو « فاليه » الذى اختار أجمل مسجد فى قسطنطينة ليجعل مه أجمل كنيسة فى المستعمرة . . . » ا . هـ

* * *

مآسى لا تنسى...

وقد وقع الاختيار على القس سوشيه هذا ليكون راعيا للكنيسة التى كانت مسجدا ، وما أن أطلقت يداه ليعد لنفسه منبرا للوعظ فيها ، حتى استولى على منبر الرسول محمد ، أتى به من مسجد يقال له « المقدس » ، وهو آية فى فن النقش العربى ، وعلى هذا المنبر النفيس ، وقف سكرتير الحاكم « بوجو » يقول :

« إن آخر أيام الإسلام قد دنت ، وفى خلال عشرين عاماً لن يكون للجزائر إله غير المسيح ، ونحن إذا أمكننا الشك فى أن هذه الأرض تملكها فرنسا ، فلا يمكننا أن نشك على أى حال أنها قد ضاعت من الإسلام إلى الأبد ، أما العرب فلن يكونوا ملكا لفرنسا إلا إذا أصبحوا مسيحيين جميعًا » . . .

* * *

أرأيت هذه السخائم المشتعلة يمدها بالوقود تدين وحشى كاذب ؟ تلك هى الصليبية الفرنسية ، قادها ضد مصر « لويس التاسع » من سبعة قرون ، ثم عاد يكسوه العار ، وقادها خلفاؤه ضد الجزائر من قرن وثلث ، ولا يزال القتال ناشبا بين المغيرين والمدافعين إلى يوم الناس هذا ، وهو قتال مرير المذاق ، ندفع نحن المسلمين مغارمه الفادحة من آلاف المهج الهالكة ، وعشرات القرى المدمرة .

والعالم الغربى يشهد المأساة الشائنة وهو يضحك ! ! إن قتل المسلمين (جملة وتفصيلا) بعض ما تواضع عليه ساسة أوروبا وأمريكا ، والخلاص من دينهم هو أمنيتهم الحبيبة ، هو أمنيتهم التى يسعون لتحقيقها جهرة واغتيالا . . !